

الفصل الأول

فتح إيران

عندما بدأت حركة التوسع الإسلامية الأولى كانت دولة الفرس الساسانيين دولة ذات سلطات وقوة ونظام. لأن طول عهد الفرس بنظام الدولة أعطاهم خبرة وتقاليد إدارية، ومعرفة بشئون الحرب والإدارة، فقد كان على رأس الدولة ملك عظيم الشأن يسميه العرب «كسرى» وهو تعريب لفظ «خُسُرف» بالفارسية الفهلوية، ومعناه: الملك أو السلطان، يعاونه وزير يسمى «الدستُ فار» أى: شيخ البلد^(١).

وكانت المملكة الساسانية مقسمة إلى أقسام إدارية كبيرة يسمى كل منها بالإستان أو «الرسَاق»^(٢). والرسَاق كان مقسما إلى وحدات إدارية تسمى الواحدة منها «سَترِبَّة» يحكمها «سَترَب» فى مقام المحافظ اليوم.

والستربيات تنقسم إلى كُور والمفرد كورة، وفى الكور مدنٌ وقرى، والمدينة بالفارسية تسمى جرد. والقرية تسمى «ده». وكانت رساتيق فارس لها أسماء يونانية قديمة، أطلقها عليها اليونان ثم الإسكندر عندما فتح فارس، مثل باكتريا وهى بلخ، وأكباتانا وهى همذان، وقد حلت الأسماء الفارسية محل اليونانية، ولكل ناحية مدير مالى يسمى «الإصبهيد» وقد جمعه العرب على «الإصبهيدين». وكان إيراد الدولة الساسانية عظيما، بدليل ما وجد فيها العرب من الخيرات والكنوز عندما فتحوها، وكان الجيش الفارسى أيام الساسانيين من أعظم جيوش الدنيا، والجيش بالفارسية «سيباه» يقوده قائد رفيع القدر، وكانت قوة فرسان الفرس عظيمة، والفارس فى الفارسية يسمى «الأسوار» والجمع «أساوره»^(٣).

وكذلك كانت فرق مشاة الفرس مشهورة بقوة مراسها، هذا بالإضافة إلى الأسلحة العظيمة، والعدة الضخمة، والفيلة.

(١) من هذا اللفظ الفارسى جاء لفظ «دستور» التركى الذى دخل العربية بمعنى القانون الأساسى أو النظام أو صاحب النظام، وعندما كانت الدولة العثمانية تخاطب حاكما من كبار حكام الولايات كانت تخاطبه بلفظ «الدستور المكرم» وبه خاطبت الدولة العثمانية محمد على مرارا.

(٢) دخل هذا اللفظ اللغات الأوروبية بمعنى الريفى فقالوا فى الفرنسية Rustique وفى الإيطالية والإسبانية Rustico وفى الإنجليزية Rustic.

(٣) دخل هذا اللفظ فى المصطلح العسكرى المصرى عن طريق التركية فى صورة «سوارى».

وكانت ديانات الفرس وثنيات، هي الزرادشتية أو المزدكية، وهي ديانة تقوم على عبادة النار وقد سماها العرب المجوسية، وكاهن بيت النار يسمى «الموبذ» وعلى رأس كهنة البلاد كان الكاهن الأكبر ويسمى «موبذان موبذ».

وقد كانت دولة الفرس الساسانيين عندما هاجمها العرب متماسكة قوية غنية على رغم تدهور الأسرة الحاكمة، ولم يغلبها العرب لأنها كانت بالغة الضعف أو آيلة للسقوط. وإنما غلبوها لأنهم واجهوها بقوة أعظم هي قوة الإسلام.

وكان الفرس الساسانيون عند ميلاد الإسلام سادة هضبة إيران حتى نهر المرغاب شرقا، وكان قلب إمبراطوريتهم في بلاد العراق وعاصمتهم المدائن التي تسمى طيشفون Etesipon على نهر دجلة. وكانت الحرب بينهم وبين الدولة الرومانية الشرقية؛ ثم دولة الروم البيزنطيين طويلة. وكان الروم الذين كانوا يسودون غربى بلاد الشام بما فى ذلك فلسطين، يضعون تحت حمايتهم دولة عربية موالية لهم، هى دولة الغساسنة التى كانت تسيطر على ما يعرف الآن ببلاد الأردن وبعض الأراضى شماله. وكانت هذه الدولة تصل جنوبا إلى العقبة وأيلة على خليج العقبة، وكذلك كانت دولة الفرس تتخذ لها فى شرق جنوب العراق دولة عربية، هى دولة المناذرة اللخمييين وعاصمتها الحيرة، وكان الحد الفاصل بين جزيرة العرب وبلاد الشام— وهو خط يمتد تقريبا من أيلة إلى الحيرة — مسكونا بقبائل عربية تسمى فى الغرب بعرب الروم أو العرب المنتصرة، أما فى الوسط فكانوا يسمون بعرب الضاحية أو ضاحية قضاة. وكانت دولة الفرس الساسانيين التى كانت تحكم الهضبة الإيرانية فى عصر البعثة المحمدية، قد شاخت وتفككت عرى وحدتها، ودخلت فى دور «التدهور» وليس أدل على ذلك من أنه تعاقب على عرشها، من أواخر القرن السادس الميلادى إلى تمام قضاء المسلمين عليها سنة ٣٢ هـ / ٦٥١ م. وهى سنة قتل يزيدجرد آخر ملوكها— عدد من الأكاسرة هم:

■ بسطام ٥٩١ - ٥٩٦ م وكان نائرا على العرش ظهر فى ميديا وقضى على كسرى الثانى أبرويز.

■ فباز الثانى (شيرويه) ٦٢٨ - ٦٣٣ م.

■ أردشير الثانى ٦٣٣ م.

■ شهر براز ٦٣٤ م.

■ بوران دخت ٦٣٤ م.

■ آزرميدخت ٦٣٤ م.

■ يزد جرد الثالث ٦٣٤ م - ٦٥١ م (١٣ - ٣٢ هـ).^(١)

وهناك مبالغة في نصوص تصوير اتساع دولة فارس في العصر الإيراني، لأن فارس لم تكن قط في أى عصر من عصور تاريخها قبل الإسلام دولة ثابتة الحدود، إنما كانت حدودها تتسع أحيانا في عصور الملوك الأقوياء، وتنقص في عصور الضعفاء «وهم الأكثرون»، وعماد القوة العسكرية الإيرانية كان جماعات مرتزقة من قبائل تركية إلى جانب قبائل الهضبة الإيرانية نفسها، وكان الأكاسرة يسلطون هذه الجماعات المقاتلة على البلاد. لإرهاب أهلها وإرغامهم على أداء الجزية والإتاوات خاصة في الولايات الشرقية، وهى طوران، وبارتان، وكوشان شهر، وصغديانا. وآخر ملوك الساسانيين العظام هو خسرو الأول المعروف بأنو شروان أى ذو العقل أو العاقل (٥٣١ - ٥٧٩ م) وله فى الكتب العربية صيت بعيد.

وكانت ديانة الفرس الغالبة هى الزرادشتية التى تقوم على وجود إلهين: إله النور أو «مازدا»، وهو إله الخير، وإله الظلمة أو «أهريمان» وهو إله الشر، ورمز إله النور والخير هو النار التى انتشرت معابدها فى كل نواحي إيران، وقد نافست الزرادشتية ديانة أخرى هى المانوية وقد بشر بها مانى، وهى ديانة وثنية أيضا ولكنها كانت متأثرة بالمسيحية، أى تقول بالعدالة وتقسيم الثروات بين الناس، ولهذا يصفها الكثيرون من مؤرخى العرب فى صورة مبادئ تقول بشيوعية ملك كل شىء حتى النساء. ولم تكن المانوية كذلك، وقد حاربها الأكاسرة حربا عنيفة وضيقوا عليها الخناق.

ومن الناحية السياسية والاجتماعية كانت قواعد الحكم الساسانية الأصلية قد تدهورت بعد كسرى أنو شروان، واستبد بالناس حكام الولايات وكلهم من أفراد البيت الساسانى ما عدا شهر براز، وكانت عادة أولئك الأمراء حكام الولايات أن يختار كل منهم قائدا، يحكم الولاية باسمه ويفعل بأهلها ما يريد، وهى ظاهرة إدارية سيرتها العباسيون من الفرس، وكان يساعد القائد قواد أصغر منه يسمون الأساورة، وواحدهم الأسوار، وكان لكل ولاية عامل مالى يسمى الإصبهيد، والإصبهيد يعتمد فى حكم القرى على طاغية محلى يسمى الدهقان يعسف بالناس ويشتط معهم فى الجبايات، ويذهب كرسنتسن فى كتابه عن تاريخ إيران فى عصر الساسانيين إلى أن منصبى الموبذ والموبذان كانا لهما خصائص دينية، وربما كان الموبذان يقوم بوظيفة الكاهن الأكبر.

(١) أطلس تاريخ الإسلام - د. حسين مؤنس - ١٩٨٧ - الزهراء للإعلام العربى - ص ٤٩.

وكان قلب الدولة الإيرانية الساسانية ومصدر تراثها هو إقليم خراسان وقاعدته نيسابور، وكان إقليم خراسان الساساني أصغر حجما من خراسان الإسلامية، فقد كان يمتد من شرق لوكانيا التي كانت تعرف أيضا باسم جرجان، وسيحتفظ بهذا الإسم عند تحول بلاد فارس إلى بلاد إسلامية، وكانت حدود خراسان الشرقية تقف عند نهر المرغاب. وإلى الشرق باتجاه الهند. توجد مناطق تعتبر من الناحيتين الجغرافية والبشرية من أعسر مناطق الأرض، فالجبال غاية في الصعوبة والخشونة، وفي منطقة طخارستان وهي شمال أفغانستان توجد مناطق باميان وزابلستان الجبلية الوعرة، وهي امتدادات إلى الغرب من جبال الهند كوش العالية. وفروعها جبال البرز وسليمان التي تحمي سهول السند من الشمال والغرب، فلا ينفذ الإنسان منها إلا عن طريق ممرات جبلية عالية، أشهرها وأكبرها ممر خيبر المشهور الذي تقوم قرب مخرجه الجنوبي مدينة بشاور، أول البلاد الهندية الكبرى، وهذه المناطق الجبلية الواقعة بين هضبة إيران وسهول السند تنتهي في الجنوب بعد غزنة وقندهار بأقاليم صحراوية فقيرة، كان المسلمون يسمونها بلاد الميد أو المغازة، وكانت تسكنها في عصر الفتح الإسلامي الأول للهند العقد الأخير من القرن الهجري الأول/ الثامن الميلادي قبائل فقيرة هي خليط من الإيرانيين والترک والهنود، وكان بعض رجالها يركبون السفن في البحر العربي. ويقطعون الطريق على السفن. وكان إخضاع هذه القبائل وكف أذاها عن الناس بالبر والبحر من أسباب سير المسلمين إليها وفتحها، وفي هذه النواحي ستنزل قبائل البلوش فيما بعد، مما أعطى هذه الناحية اسم بلوستان. والإقليم اليوم قسمة بين إيران والباكستان



مراحل الفتح

المرحلة الأولى

بعد أن انتصر المسلمون في حرب الردة وعادت وحدة الأمة وثبتت ثقة العرب في دولتهم الناشئة تقدم شيخ قبيلة شيبان، وهي من أقوى القبائل الضاربة قرب الحيرة- واسمه المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم الشيباني- وأخذ يناوش جماعات الفرس القريبة من منازل قبيلة شيبان، وكانت مناطق الفرس هنا تقع في بلاد المناذرة اللخمييين عملاء الفرس، فبلغ ذلك أبا بكر الصديق. فسأل عن المثنى، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري: هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد. هذا المثنى بن حارثة الشيباني، والمثنى جدير بهذا الثناء فقد دل أثناء الفتح على أنه كان من أصدق المسلمين، وأكثرهم شهامة وأبعدهم عن الأنانية. وأعزهم مكانا وأكثرهم إخلاصا، فقد قدم الكثير جدا وأبلى أحسن البلاء دون أن يطلب لنفسه شيئا، ودون أن يتلقى من الإدارة الإسلامية ما يستحق من الثناء والتقدير، ولما سمع ذلك أبو بكر اطمأن، ثم وفد المثنى بن حارثة على أبي بكر واستأذنه في غزو الفرس فأذن له، فكتب له أبو بكر عهدا، فسار حتى نزل خِفَان، ودعا قومه إلى الجهاد فاستجابوا، واسروا معه، وتقدم المثنى إلى خِفَان، ثم وقف في انتظار تعليمات أبي بكر.

المرحلة الثانية

خالد بن الوليد وقادة يبدءون فتح العراق فتح الحيرة في ذى القعدة ١٢ هـ/ يناير ٦٣٤ م

واختار أبو بكر خالد بن الوليد لقيادة هذا الفتح، فقام خالد إلى المدينة، وخرج منها مع قواده ومعه نفر من الجنود، واتجهوا إلى الحيرة، وكان أبو بكر قد أمر خالدا بأن يتجه إلى الحيرة في حين يتجه عياض بن غنم بقوة من الجند إلى دومة الجندل لفتحها، والاستمرار بعد ذلك لفتح شمال العراق، وقد وجد عياض صعوبة في فتح دومة الجندل، واضطر خالد إلى العودة إليه لفتحها، واستخلاص عياض بن غنم، وقد انضم عياض بجيشه إلى قواد خالد.

وبدأ خالد في أول محرم ١٢ هـ/ مارس ٦٣٣م ففتح مع قواده ذات السلاسل والأبلة . وانضم إلى خالد قطبة بن قتادة الذهلي ومعه قومه من ذهل بن شيبان، وكانوا يريدون فتح الأبلة ففتحوها مع خالد، ثم أقام عليها خالد شريح بن عامر بن قين من بني سعد بن بكر بن هوازن، وكانت الأبلة هي مدخل العراق. ولحق بخالد جرير بن عبد الله البجلي، وكان من كبار الفرسان الذين يجيدون الحرب والكتابة. ثم تقدم خالد إلى أليس على نهر الفرات. ومعه المثني بن حارثة الشيبان، ففتحها ثم فتح الحيرة. وصالحه أهلها على الجزية والمنعة.

المسلمون يعبرون الفرات ويدخلون أرض السواد

وسار خالد إلى الأنبار على شاطئ الفرات الشرق فتحصن منه أهلها، فعسكر المسلمون حولها ثم فتحوها. وكانت الأنبار موضع أهراء الفرس (مخازن الغلال) ومنها كانوا يعطون أتباعهم من العرب من المناذرة وغيرهم. وبلغ من اطمئنان خالد إلى قوة مركزه ومركز رجاله في هذه النواحي أنه ترك جنوده وذهب إلى الحج، فقطع حوالي ١٤٠٠ كيلو متر ثم عاد إلى جيشه، وكان هذا خطأ جسيماً منه، ولكن أبا بكر لم يلمه عليه عندما بلغه الخبر، أما عمر فقد أخذه عليه وكان ذلك من أسباب عزله إياه.

مسير خالد إلى الشام

وكتب أبو بكر إلى خالد بعد ذلك يأمره بالمسير إلى الشام بنصف من معه، فبدأ رحلته إلى الشام من الحيرة ومر بقراقرز في ٨ صفر ١٣ هـ/ ٣ أبريل ٦٣٤م. ومنها إلى سوى ثم كواسل ثم تدمر فالقريتين إلى دمشق ثم بصرى.

المرحلة الثالثة

بعد رحيل خالد بن الوليد إلى الشام تولى المثني بن حارثة قيادة فتوح العراق بأمر أبي بكر في ١٣ أبريل ٦٣٤م. وتولى عرش فارس شهربراز بن أردشير بن شهريار. فأرسل إلى المسلمين جيشاً كبيراً بقيادة هرمز جاذويه. وعندما تولى عمر بن الخطاب الخلافة أرسل أبا عبيد بن مسعود الثقفي فعمل المثني تحت قيادته. وتقدم أبو عبيد بالمسلمين ليلقى قائداً يسمى بهمن عند بلدة تسمى قس

الناطف، وعبر المسلمون مجارى الماء، وعسكروا بموضع سمي المروحة. وأقاموا جسرا ليعبروا عليه إذا دعت الضرورة، والتقى المسلمون بالفرس بقيادة «بهمن جازويه»، وكان في جيشه فيلة من بينها فيل أنزل بالمسلمين أذى كبيرا. وهجم عليه أبو عبيد بن مسعود وبرك عليه الفيل فقتله، وكثر القتل في المسلمين فأرادوا التراجع عبر الجسر فإذا به مقطوع، قطعه واحد من المسلمين ليحول بين المسلمين والفرار. فغرق من المسلمين كثيرون، وكانت هزيمة. ولهذا تسمى هذه الواقعة بقس الناطف أو الجسر، وبلغ الأمر عمر فحزن حزنا شديدا على أبي عبيد بن مسعود، وواسى المسلمين الذين انهزموا ودعاهم إلى العودة، وسكت عمر عن بلاد الفرس فترة طويلة، ثم جعل يدعو المسلمين ويرغبهم في حرب الفرس، فعادت الجموع إلى ميدان الفتح في فارس.

وكانت وقعة الجسر في ٢٣ شعبان ١٣هـ / أكتوبر ٦٣٤م. ومات شيرويه ملك الفرس وخلفه بوران بنت كسرى، وأرسل الفرس جيشا بقيادة مهرا بن باذان، وعبر مهرا الجسر إلى موضع يسمى البويب، وعسكر المسلمون بموضع يسمى النخيلة وعليهم المثنى بن حارثة ومعه جرير بن عبد الله البجلي، والتقى المسلمون مع الفرس في قتال عنيف قتل فيه من المسلمين خلق كثير فيهم مسعود بن حارثة أخو المثنى. وانتصر المسلمون وقتل مهرا. وقد أعاد انتصار البويب إلى المسلمين ثقتهم في أنفسهم بعد هزيمة الجسر. وكان ذلك في شهر رمضان ١٣هـ / نوفمبر ٦٣٤م.

وشغل المثنى بن حارثة نفسه بالفارات والضربات السريعة فيما بين أليس وكسكر جنوبا إلى الخنافس وبغداد شمالا، ومنتقب وعين التمر والفلايح والعال ثم أوغل حتى صفين. وبدأ الفرس يحشدون حشودهم لهجوم مضاد كبير، فارتد المسلمون إلى الضفة الغربية، وفكر عمر في أن يتولى فتح فارس بنفسه، ثم انتهى أمره إلى اختيار سعد بن أبي وقاص بن مالك بن أهيب بن عبد مناف من بني زهرة، وهو من الذين تربوا في مدرسة الرسول العسكرية.

وتنتهى قيادة المثنى لأن سعد بن أبي وقاص سار إلى العراق واستقر في التعليبية ثلاثة أشهر حتى تلاحق به الناس، ثم قدم العذيب في سنة ١٥هـ / ٦٣٦م. وفى ذلك الحين مرض المثنى بن حارثة ومات.

وأقبل رستم بقوات الفرس فنزل برس. ثم سار فأقام بين الحيرة والسيلحين أربعة أشهر وكتب سعد إلى عمر يستمده فأمدّه برجال من الشام، وكان اللقاء في القادسية في شهر

شعبان سنة ١٥هـ/ سبتمبر ٦٣٦م، ودام أربعة أيام. وانتهى بنصر حاسم للمسلمين وقتل رستم. وكان قد رفض دخول الإسلام واستكبر. وقتل من المسلمين نفر منهم سعد بن عبيد الأنصاري فحزن عليه عمر حزنا شديدا.

وتراجعت فلول الفرس إلى المدائن، وهي مجموعة مدائن صغيرة كانت تسمى طيشفون ETESIPHON أولها من الجنوب بهر سير. فاقتحمها المسلمون في صفر ١٦هـ، ثم عبروا دجلة على ظهور الخيل فاقتحموا المدائن، ودخلوا إيوان كسرى في صفر ١٦هـ/ مارس ٦٣٧م. وهرب مع كبار رجاله، وحمل معه بيت ماله وخزائنه ونساءه وذريته.

ثم كانت المعركة التالية في جلولاء. وكان يقود الفرس مهرا ن الرازي. وكان يقود المسلمون من قبل سعد هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فهزم الفرس، فانتقلوا إلى حلوان. وتبعهم المسلمون ففتحوها، وفتحوا بقية بلاد السواد أى العراق، وأسلم الكثير من الدهاقين فتركهم عمر على ما هم عليه. وأرسل عمر عثمان بن حنيف الأنصاري يمنح السواد فوجده ٣٦ ألف ألف جريب، فوضع عمر على كل جريب درهما وقفيزا، ثم عدل الأمر بعد ذلك، وبلغ خراج السواد أيام عمر مائة ألف درهم، وفى أيام الحجاج هبط إلى أربعين ألف ألف.

وكانت البصرة قد اختطها عتبة بن غزوان سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م. أما الكوفة فقد اختطت سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م. وخرج المسلمون من المدائن إلى الكوفة. وأصبح العراق ولايتين هما البصرة والكوفة. وكانت البصرة الولاية الكبيرة ومنها فتحت فارس، أما الكوفة فكانت ولاية أصغر بكثير وليس لها من بلاد فارس إلا طبرستان والرى وقومس. وقسمت ولاية الكوفة إلى أربع ولايات:

حلوان وقد تولاه القعقاع بن عمرو.

وماسيدان وعليها ضرار بن الخطاب الفهرى.

وقرقيسياء وعليها عمرو بن مالك أو عمرو بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف.

والموصل وعليها عبد الله بن المعتم.

ويضاف إلى ولاية الكوفة الفروج وهى الأبله.

عندما هرب يزيدجرد من حلوان سنة ١٦ هـ تجمعت حوله الفرس، وحول مردانشاه ذا الحاجب، وجاء ناس من الرى وقومس وأصبهان وقرروا الحرب، وأخرجوا رايتهم الدرفشكابين، وكتب عمار بن ياسر والى البصرة إلى عمر بذلك فأقام على حرب

الفرس النعمان بن عمرو بن مقرن المزني، وسار معه ثلثا جند البصرة، وسار معه رجال من خيرة المسلمين، فيهم حذيفة بن اليمان. وجريز بن عبد الله البجلي، والمغيرة بن شعبة، والأشعث بن قيس. والتقى المسلمون مع الفرس في نهاوند، ووقع قتال من أعنف ما خاض المسلمون، وكان النعمان بن مقرن من أوائل الشهداء، وبعده حذيفة بن اليمان، وغنم المسلمون مغانم عظيمة. وكان فتح نهاوند سنة ٦٤١م. وسميت نهاوند فتح الفتوح. وقد ضمت نهاوند إلى ولاية الكوفة، ثم نقلت إلى البصرة لأنها من أصبهان، وأعطيت الدينور للكوفة، وسميت نهاوند ماه البصرة والدينور ماه الكوفة.

وفي نهاوند قضى المسلمون على آخر الجيوش الفارسية الساسانية وانهت بذلك الدولة الساسانية. وإن كان يزيدجرد الثالث آخر ملوك ساسان لم يقتل في هذه المعركة، وظل بعدها ينتقل من بلد إلى بلد. محاولا تنظيم المقاومة ضد المسلمين فلم يستطع حتى قتل، وانتهت بذلك أسرة آل ساسان. وبعد نهاوند كان على نواحي إيران أن تقوم بالتعامل مع المسلمين، كل على حدة. فكان ذلك مشجعا للمسلمين على التقدم لفتح إيران.

وقد تقدم المسلمون لفتح إيران في اتجاهين:

الأول: اتجاه جيوش ولاية البصرة، ووجهتها وسط إيران وشمالها الشرقي. وبخاصة إقليم خراسان وهو قلب إيران.

والثاني: هو اتجاه قوات ولاية الكوفة، وقد اقتصر على جنوب بحر قزوين وإقليم جرجان، ولم تتخط فتوح الكوفة ذلك ناحية الشرق، لأن ولاية البصرة اجتهدوا في أن يكون فتح إيران من أعمالهم، واتجهت جهود قوات الكوفة بعد ذلك إلى التوسع غربى بحر الخزر (قزوين) أى أقاليم أذربيجان وماتيسر لها فتحه من إرمينية وبلاد الكرج. ولم تخف حدة التنافس بين البصريين والكوفيين إلا خلال الفترات التي تولى فيها الولايتين رجل واحد وتسمى هاتان الولايتان بالعراقين.

ومن البصرة والكوفة ثم من واسط بعد أن اختطها الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي واتخذها قاعدة له بعد أن صار والى العراقين سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤م. وقد ظل يشغل هذا المنصب الكبير الذى جعله بالفعل حاكم الجناح الشرقى لدولة الإسلام حتى توفى سنة ٩٥ هـ / ٧١٣م.

وقد قام بالعمل تحت إمارة الحجاج نوابه وهم:

فى ولاية البصرة إياس بن الحكم الجراح بن عبد الله الحكمى.
وفى ولاية الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة المغيرة بن عبد الله بن أبى عقيل حوشب
بن يزيد.

ولفتح إقليم الجبال أرسل المغيرة بن شعبة والى الكوفة سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢م قوات من
عرب الكوفة لغزو أذربيجان. توغلت هذه القوات فى إقليم طبرستان جيلان وقومس،
وعقدت قواتها اتفاقيات سلام مع حكامها أو أصحاب الأمر فيها، ولم ينتج عن هذه
الحملة استقرار للفتح الإسلامى فى هذه النواحي، فقد كانت كلها غارات خاطفة، ولم
يلق المسلمون مقاومة كبيرة من أهلها، وقد أعيد فتح مدن هذه النواحي مرة بعد أخرى،
بل إن مدينة إصطخر قاعدة إقليم فارس لم يتم فتحها على رغم أن المسلمين اجتاحوا
الإقليم كله.

وفى مرحلة أخرى امتد سلطان الدولة الإسلامية حتى شمال خراسان فى عهد الخليفة
الراشد الثالث عثمان بن عفان، والفضل فى ذلك يرجع إلى القائد عبد الله بن عام بن
كريز، وهو من عبد شمس وابن عم للخليفة عثمان بن عفان. وعبد الله بن عام هو الذى
أدخل التغيير الحاسم على طبيعة الفتح الإسلامى فى إيران، فحول الغارات وال ضربات
الخاطفة إلى فتح دائم مستقر. وقد بدأ ذلك منذ ولايته على البصرة أواخر ٢٩هـ / منتصف
٦٥٠ م مستعينا بقائديه عثمان بن حنيف، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقد تمكن
عبد الله بن عام بعد جهود شاقة من إتمام فتح إقليم فارس وتحويل قاعدة إصطخر إلى
قاعدة إسلامية.

ومن فارس أخذ عبد الله بن عام يرسل جيوشه لفتح إقليم كرمان، ولكنه لم يوفق فى
فتحه، فعاد إلى البصرة، وجهز جيشا كبيرا لفتح خراسان سنة ٣١ هـ / ٦٥١م، عبر الطريق
الجنوبى المار بكرمان.

وفى نفس الوقت أرسل والى الكوفة سعيد بن العاص جيشا آخر لفتح خراسان أيضا عبر
الطريق الشمالى المار بقومس. ولم تتخط هذه الحملة مدينة قومس بعد أن علم قائدها أن
قوات عبد الله بن عام والى البصرة قد سبقته إلى دخول خراسان.

تقدمت قوات البصرة بقيادة عبد الله بن عام نحو خراسان، فمر فى طريقه بكرمان ثم
الطبيين وعقد مع أهلها صلحا، ثم تقدم فحاصر نيسابور وفتحها بعد حصار عدة شهور

وسار أحد قواد عبد الله بن عامر وهو الأحنف بن قيس من الطبسين إلى هياطلة هراة وهزمهم، ثم ارتد إلى نيسابور قبل استسلامها.

بعد فتح نيسابور أدرك أهل مدن خراسان الأخرى أنهم لن يستطيعوا الصمود أمام العرب، فأرسلوا وفوداً لطلب الصلح وأداء الجزية. ومن هذه المدن نسا وأبيورد. وتقدم أحد قواد عبد الله بن عامر وهو عبد الله بن حازم ففتح سرخس. وكذلك استسلمت طوس، وعقد أهل هراة صلحا مع المسلمين، وكذلك استسلمت مرو مقابل أداء جزية كبيرة.

وهذه المعاهدات كلها تركت للدهاقين أمر جمع الأموال التي قررتها معاهدات الصلح لتسليمها للمسلمين. أى إن أصحاب السلطان فى المدن والقرى فى العصر الساسانى ظلوا فى مراكزهم واستمروا فى ظلم الناس، وكان لهذا أثره فى مستقبل الإسلام فى إيران، وفى العلاقة بين العرب والإيرانيين.

وقد تمكن عبد الله بن عامر وقواده من إدخال كل خراسان فى نطاق دولة الإسلام. وفى سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م أرسل عبد الله بن عامر قائده الأحنف بن قيس ففتح مرو الروز معقل الساسانيين الحصين فى جنوب خراسان، وفتح فى طريقه حصن الرستاق الذى عرف بعد ذلك بقصر الأحنف.

وبذلك وصل المسلمون إلى حدود بلاد الجنس الإيرانية؛ لأن مرو ومرو الروز تقعان على نهر المرغاب، وهو الحد الفاصل بين الإيرانيين والترك.

عصر السيادة العربية

بعد فتوح قتيبة بن مسلم الباهل استقر سلطان العرب فى كل بلاد إيران من حدود العراق الشرقية إلى حوض السند وفرغانة شرقاً، وامتد إلى بلاد ما وراء النهر وما يليه شمالاً إلى بلاد الأتراك القرخانية فى التركستان الصينية فى حوض التاريم وبحيرة بلكاش، التى كانت المواطن الأولى للأتراك الغزية وتليهم إلى الغرب «شمال التركستان» منازل الأتراك القفجاق ثم الترك الخزر، ومنازلهم شمال البحر الأسود وجزيرة القرم، ثم الأتراك البلغار جنوبى حوض نهر الطونة «وإلى شمالهم البشناق» ثم الأتراك الأيغور الذين يسمون فى بعض النصوص العربية «الأويراتية» وكان الغز والأيغور يتوالون على نسق حتى يتصلوا بالمغول الذين كانت منازلهم تبدأ فى حوض التاريم وبحيرة بكلاش، وتمتد بلاد المغول إلى صحراء جوبى وصحراء منغولياً

وتنتهى شرقاً عند سور الصين حتى تمكن جينكيز خان من تخطى سور الصين وغزوها، وبلى ذلك شرقاً شعوب الصين وهى تنتمى إلى جنس آخر يمتد إلى المحيط الهادى.

وكانت الشعوب الإيرانية ذات التاريخ الطويل منذ العصور القديمة والتي عرفت عندنا باسم الفرس تنتهى على وجه التقريب عند نهر المرغاب الذى يجرى منحنيًا من الشمال إلى الشرق جنوبى نهر جيحون، وهو نهر مرو ومرو الروذ، وبعد ذلك شرقاً تبدأ شعوب الترك وأولهم الترك الغزية. وهم أكثر الأتراك أثرًا وأكبرهم دورًا فى تاريخ الإسلام ومنهم السلاجقة والعثمانيون. والأوزبك ومعظم المماليك، ومنهم الهياطلة Hephthalites أهل طخارستان الذين حاربهم وهزمهم قتيبة بن مسلم وأدخلهم فى الإسلام، ولما كانت هضبة إيران قبل الإسلام قسمة بين هؤلاء الأتراك والإيرانيين فقد سميت هضبة إيران كلها باسم بلاد توران وإيران. وكان الجنسان متحاجزين حتى أيام الساسانيين.

وإلى العرب يرجع الفصل فى إزالة الحواجز العنصرية والحضارية بين الطورانيين والإيرانيين، فقد ذاب الجانب الأكبر من تلك الفوارق فى بوتقة الإسلام وحضارته. وإلى الإسلام يرجع الفضل فى إدخالهم عالم الحضارة والتاريخ. وأول دولة كبيرة منهم هى دولة الغزنويين صاحبة الدور العظيم فى تاريخ الإسلام، ويليهما فى الأهمية الأوزبك الذين دخلوا بلاد ما وراء النهر واستقروا فيها؛ ثم الغوريون فى جنوب شرق الهضبة الإيرانية وفى أفغانستان الحالية.

وهذه الشعوب التركية كانت تزحف شيئًا فشيئًا وتدخل بلاد الإسلام وتتحضر. تدفعها إلى الشرق جماعات المغول. وكان الجنسان يعيشان فى سلام نسبي حتى قامت دولة الخوارزمشاهية، وتحرشت بالمغول واستثارت جنكيز خان المغولى الكبير، ودفعته إلى السير بقواته غربًا وغزو بلاد الأتراك والإيرانيين والعرب، والقضاء على خلافة بغداد، وقد أسلم من المغول جانب كبير بعد أن حاربوا بلاد الإسلام فى هضبة إيران وبلاد ما وراء النهر، وجاءت دولة تيمورلنك الذى يقال إنه حفيد جنكيز خان، حيث قام بدور رهيب فى تخريب بلاد الإسلام، ولم يهدأ أمر المغول إلا فى عهد سلطانهم العظيم أولوج بك وكانت قاعدته سمرقند، وكانت هى أيضا عاصمة تيمور.

وكان الترك الطورانيون يعيشون قبائل كبيرة أو صغيرة، أما المغول فكانوا يعيشون قطعانًا ضخمة تسكن بيوتا من شعر الماعز، وأهم أقسامهم مغول القطيع الذهبى يليهم شرقًا مغول القطيع الأسود.

أما التتار فهم قبيل قائم بذاته كان يسكن شرقي بلاد المغول. وكانوا بدوا واستمروا بدوا في حين أن الأتراك والمغول تحضروا واستنقروا بفضل الإسلام، ولم يتحضر من التتار إلا الذين هاجروا إلى الغرب ودخلوا الإسلام. أما بقيتهم التي ظلت في مساكنها في بلاد الإستب شمال شرق بلاد المغول فقد ظلوا بدوا. وديانتهم الشامانية. وكانوا ينتسبون إلى التتار البيض وإلى جنوبهم التتار السود، وإلى التتار جميعا تمتد بلاد سيبيريا، وفيها عاش التتار الموغلون في البداوة. وكان المغول يسمونهم تتار الغابة، وكان توحش التتار السبب في تجمع المغول (وكانوا يسكنون غربي سور الصين) وإنشائهم دولة واحدة هي التي بلغت ذروة قوتها ونشاطها أيام جينكيز خان.

تلك هي الصورة البشرية للبلاد التي كانت تلي العراق، وهذه الشعوب بمن فيهم الإيرانيون هي التي ستدخل الإسلام وتتولى نشره في شرق الصين وبلاد الهند، وكان انتشار الإسلام شرقا عملية تتابع بدأها العرب بإدخال الإيرانيين ثم جانب عظيم من الطورانيين في الإسلام، وهؤلاء أخذوا الراية من الإيرانيين. ونشروا الإسلام في غرب الصين وشبه القارة الهندية. وفي الشمال نشره في بلاد ما وراء النهر. وآسيا الوسطى إلى روسيا وسيبيريا.

هذا مدخل موجز لابد منه لفهم اتساع الإسلام شرقا.

ونقول بعد ذلك إن قتيبة بن مسلم الباهلي هو صاحب الفضل الأعظم في إدخال الأتراك شرقي نهر المرغاب وفي بلاد ما وراء النهر في الإسلام، وكان هذا الرجل من الجلالة بحيث سحرت شخصيته الأتراك فدخلت جماعاتهم الإسلام إعجابا بشخصه الذي بدا لهم رمزا للفضيلة والشهامة والرجولة، وقد وصل هذا الرجل ببسالته وبساله رجاله إلى كاشغر قاعدة بلاد فرغانة التي كانت المنطقة الفاصلة بين الأتراك والمغول، وبلغ من تأثير شخصية قتيبة أن امتد الإسلام في بلاد المغول في قلب آسيا حتى بحيرة نوب نور وبوابة زنجاريا، وهذا الرجل هو الذي ألغى نهر المرغاب كحد فاصل بين الإيرانيين والطورانيين وجعل بلادهم كلها بلاد إسلام^(١).

ومن حسن الحظ أن المسلمين حينما دخلوا بلاد إيران وطوران تركوا الناس على حالهم، فمن أسلم أصبح أخا مسلما، وأما من أراد التمسك بعقيدته فقد تركوه وقبلوا منه الجزية حتى الرؤساء تركوهم على حالهم ماداموا لم يعتدوا على الإسلام وفي النهاية أسلم أولئك

(١) المرجع السابق - ص ٢٣١.

الناس وكان حكام المسلمين فى الشرق حتى أيام هشام بن عبد الملك على الأقل ممتازين فى جملتهم، وصاحبت حركة الإسلام حركة استعراب، وكانت تسيطر سيرا طيبا حتى نهاية الدولة الأموية، وعندما قامت الثورة العباسية فى خراسان سار الألوفا من عرب إيران فى الجيوش العباسية غربا للقضاء على الدولة الأموية ولم يعودوا إلى خراسان أو إيران مرة أخرى. فإذا أضفنا إلى ذلك من هلك من العرب فى حروب العصبية تبينا لماذا ضعف العصر العربى فى إيران وما يليها شرقا. ولما كان العرب هم خميرة التعريب فقد تراخت حركة التعريب، بل توقفت وحدث العكس، بدأت الأقلية العربية هناك تتكلم الإيرانية. أما أولادهم فقد نشأوا لا يعرفون العربية لأن أمهاتهم كن إيرانيات، وكذلك كانت البيئة التى نشئوا فيها كلها إيرانية، وهنا أخذت الروح الإيرانية تنتعش وديت الروح فى اللغة والحضارة الإيرانية، وأخذت الحركة صورة رد فعل إيرانى خارج النطاق العربى، فبدأت الإيرانية تحل محل العربية، وبدأت سيطرة العنصر الإيراني على الوزارة ودواوين الدولة، وتراخت الدولة العباسية مع حكام النواحي فى إيران فى بعض الولايات وأن ظل الطابع العربى السياسى غالبا على إيران وما يليها شرقا ماداموا يظهرين الولاء للبيت العباسى ويؤدون الأموال. فظهرت دول إيرانية فى بعض الولايات وإن ظل الطابع العربى السياسى غالبا على إيران، ويتجلى هذا فى الدولة الطاهرية التى أقامها رجل من أصل إيرانى هو طاهر بن الحسين، فقد كانت دولة عربية اللغة. وحذا حذوها فى ذلك أصحاب الدويلات الإيرانية التى قامت حتى نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى.

وأكبر هذه الدول الدولة الطاهرية، ثم دولة الحسن الأطروش فى مازندران، وهى دولة عربية قامت على يد رجل من أعظم أهل البيت وهو الحسن بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكان لهذه الدولة دور عظيم جدا فى إدخال ولاية مازندران وهى طبرستان وماحولها من بلاد جيلان وأذربيجان وقوهستان وجرجان فى الإسلام، ومن المعروف أن المسلمين فى توسعهم السريع تركوا خلفهم مساحات واسعة دون إسلام، وبعض هذه المساحات نشر الإسلام فيها رجال الحسن الأطروش، وبعضها الآخر أدخله الدعاة والصوفية فى الإسلام وبعضها نشر الإسلام فيها رجال لم يعرفوا الإسلام معرفة صحيحة فأصبح الإسلام فيها محرفا، وظل أهلها مسلمين فى الظاهر. وتلك هى الثغرات التى نفذ إلى السلطان منها دعاة غير مسلمين فى الباطن أساءوا إلى الإسلام وإلى أهل إيران أشد إساءة، وقد عانت إيران من ذلك زمانا طويلا وآلما بعيدة المدى.

والدولة الطاهرية حكمت بعض أجزاء إيران من ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ إلى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م وكان طاهر بن الحسين بن مصعب إيراني الأصل ولكنه كان مستعربا، وقد دخل بين حكام الدولة العباسية من العرب، وقد حاول طاهر بن الحسين أن يخلع طاعة العباسيين فأسقط اسم المأمون من الخطبة سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م ولكنه مات في نفس الليلة التي قطع فيها الخطبة، وولى المأمون ابنه عبد الله بن طاهر مكانه، وكان والى الرقة في بلاد الجزيرة فأرسل المأمون أخاه طلحة مكانه، والطاهريون كانوا أول دولة نصف مستقلة في تاريخ إيران الإسلامي، ولكن إيران طوال حكمها الذي دام خمسين سنة كانت تحت السيادة العربية، وقد امتد سلطان بني طاهر إلى خراسان وكرمان إلى جانب ولايتهم الأولى في طبرستان، وكانت عاصمتهم الري ثم نقلوا العاصمة إلى نيسابور قاعدة خراسان، وقد قضى على دولتهم يعقوب بن الليث الصفار وهو إيراني.

وكذلك كان كل ولاية ولايات إيران في ذلك العصر يعملون في خدمة الدولة العباسية وإن كانت أسماء بعضهم إيرانية وأهم هؤلاء:

بنو دلف العجلي:

وهم عرب أولهم أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي في بلاد الأكراد وقاعدتهم الكرج، وقد دامت دولة بني دلف من ٢١٠ إلى ٢٨٥ هـ / ٨٢٥ - ٨٩٨ م.

دولة بانيجور: ومؤسسها أبو داود محمد بن أحمد بن بانيجور:

منطقة نفوذهم بلخ وترمز وأندراية وبنجهير وإقليم الباميان من ٢٦٠ هـ إلى ٣٧٢ - ٨٧٣ . ٨٧٤ - ٩٨٢ م.

دولة آل محتاج في الصغانيان:

وقد دامت من ٣٢٠ هـ إلى ٣٤٠ هـ / ٩٣٢ - ٩٥١ م.

بنو سيمجور بخراسان:

وهم تابعون لقومستان من ٣٠٠ هـ إلى ٣٨٧ هـ / ٩١٢ - ٩٩٧ م.

بنو أحمد بن فريغون في الجوزجان وبلخ:

من حوالي ٢٧٩ هـ إلى ٤٠١ هـ / ٨٩٢ - ١٠١٠ م.

بنو مكتوم بن حرب حكام أندراية:

من حوالي ٣٥٩ هـ إلى ٣٧٤ هـ / ٩٧٠ - ٩٨٤ .

آل أفراسيات المعروفون بالإيلك خانات فى بلاد ما وراء النهر:

من ٣١٥ هـ إلى ٤٤٩ هـ / ٩٢٧ - ١٠٥٧ م وقاعدتهم سمرقند، وفى غرب بلاد ما وراء النهر آل جغراتكين أبو على الحسن بن بفراخان وقاعدتهم بخارى من ٤٠٦ هـ إلى ٥٧٩ هـ / ١٠١٥ - ١١٨٣ م. وقد قضى عليهم وحل محلهم الخوارزمشاهية.

آل طغرل خان بن يوسف قدرخان فى كاشغر والخوكان وبلاساغون:

من ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م إلى ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م. ويلاحظ أن بعض تلك الأسر حكمت مستقلة فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى وما يليه، ولكنها كانت تحكم باسم الخلافة العباسية، ودولهم على هذا امتداد لعصر السيادة العربية.

عصر الدول المحلية الإيرانية

الدولة الصفارية ٢٦١ هـ - ٣٧٩ هـ / ٨٧٥ - ٩٨٩ م

مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار، وكان أصله مع أخيه عمرو من متطوعة المجاهدين المسلمين فى سجستان. يعملون على حماية سجستان وفارق وكرمان من حالة الفوضى التى تعرضت لها من ثورات الخوارج، وكانوا قوة كبيرة من الجند الإيرانيين الذين بدأوا عملهم مع صالح بن نصر الكنانى فاتح سجستان. وقد ظهر أمر يعقوب بن الليث الصفار وصار من كبار قادة المتطوعة؛ وظهر أمره سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م واستولى على سجستان ولكن طاهر ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين صاحب خراسان استردها منه، وولى قيادة المتطوعة فى سجستان لدرهم بن الحسين، وكان يعقوب بن الليث الصفار يعمل تحت إمرته. ثم تغلب يعقوب على درهم وسار رئيس المتطوعة وحارب الخوارج والشرارة، وكان لهم سلطان كبير فى سجستان فتغلب عليهم يعقوب بن الليث الصفار وتولى أمر سجستان وانفرد بها، ثم مد نفوذه على هراة وبوشنج. ثم دخلت جيوشه نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية وأزالها.

وقد حكم من آل الصفار يعقوب بن الليث الصفار، وأخوه عمرو وحفيد عمرو هذا واسمه طاهر بن محمد بن عمرو، وغلاد من غلمانهم يسمى سبك السبكرى، وقد امتد سلطان الصفاريين على سجستان وكل ما كان بيد طاهر بن الحسين من خراسان وطبرستان وجرجان وجزء من بلاد ما وراء النهر وكرمان والسند والأهواز، وأرغم الخليفة المعتمد وأخوه الموفق على توليته شرقى بغداد، واستولى على جنديسابور من بلاد الجبال.

وكان يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو وبقية آل الصفار طواغيت عسكريين حاربوا دولة الخلافة، وإن كانوا فى طاعتها الاسمية، وعجز الخليفة المعتمد وأخوه طلحة الموفق

عن الثبات لهم، وقد نزعَت الدولة العباسية تأييدها لهم في أيام عمرو بن الليث، وكان لذلك أثر في زوال دولتهم بخاصة عندما نهض السامانيون للقضاء عليهم.

الدولة السامانية «٢٨٦ هـ - ٣٠٨ هـ / ٨٩٩ م - ٩٢٠ م»

وهذه دولة إيرانية أخرى قامت في نفس العصر، وهي تختلف في الطبيعة والتكوين عن دولة الصفاريين.

فإذا كانت دولة الصفارين دولة أسرة عسكرية طامعة في الرياسة والأموال فحسب فإن دولة إسماعيل الساماني ٢٧٩-٢٩٥ هـ / ٨٩٢-٩٠٧-٩٠٨ م كانت دولة إيرانية الروح والاتجاه. فإن أصحابها كانوا يزعمون مثل البرامكة أنهم من أصل إيراني عريق، وينسبون أنفسهم إلى بهرام جور ملك فارس من آل ساسان، وسامان منشئ الأسرة كان من عمال المسلمين المعجبين بالعرب، فقد أسلم وسمى ابنه الأكبر أسدا باسم أسد بن عبد الله القسري عامل خراسان في العصر الأموي، وعندما جاء المأمون ولي أبناء أسد بن سامان ولايات كبيرة في الشرق: فولى نوح بن أسد سمرقند سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م وأحمد بن أسد فرغانة ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة وإلياس بن أسد خراسان. وعندما تولى طاهر بن الحسين خراسان أقر هؤلاء السامانيين على ولايتهم ووافق المأمون على ذلك، فدخل تاريخ الهضبة الإيرانية بذلك في العصر الذي يمكن أن نسميه بعصر الدول الإيرانية، ونتيجة قيام الدولة الطاهرية والسامانيين بالحكم في قسم واسع من هضبة إيران وبلاد ما وراء النهر. تطلعت أسر إيرانية أخرى إلى الحكم في نواحيها، وبذلك صار معظم الشرق بأيديهم، وطمع أكبر أمراء البيت الساماني في الاستيلاء على بقية الشرق، فضم الري وقزوین إلى دولته سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م، وتمكن أحمد بن إسماعيل وابنه نصر من إزالة الدولة الصفارية، وفي المحرم ٢٩٥ هـ / ٩٠٧-٩٠٨ م استولى السامانيون على سجستان، ودخلوا في صراع مع آل حمدان أصحاب الموصل وحلب وهددوا الخليفة العباسي وأخافوه ولكنهم لم يخرجوا عليه، ولم تكن للسامانيين سياسة رشيدة ولا اتجاه واضح. وعصرهم كله عصر حروب بعضهم مع بعض. ومع نفر من المستبدين بالولايات، ومعظمهم كانوا من رجال الصفاريين أو البويهيين أو السامانيين مثل أبي الحسن بن سيمحور وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر الساماني، وهارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي وسبكتكين صاحب غزنة وكان زوال السامانيين على يد الغزنويين.

وكان للسامانيين إحساس إيراني واضح. فقد جعلوا الفارسية لغة لهم وناصروا الأدب الإيراني، ولكن اللغة العربية كانت لغة الفكر في عصرهم، وبها كتب المفكرون الذين ظهوروا في عصرهم وعاشوا في ظلهم وعاشوا على أموالهم وأكبرهم أبو بكر الرازي الطبيب مؤلف الكتاب المنصوري (وهو منسوب إلى أبي صالح منصور بن إسحاق الساماني) وابن سينا. ولكن الأدب الفارسي ظهر في أيامهم، فقد عاش في ظلهم الفردوسي ولهم ألف الشاهنامه وبالفارسية أيضا كتب البلعمرى صاحب مختصر تاريخ الطبرى.

دولة بنى بويه (٣٣٤-٤٤٧ هـ)

بنو بويه دولة فارسية ثالثة تختلف عن دولتى الصفاريين والسامانيين. فهى دولة من الجند الديلمى، أى فرق الجنود التى كانت تجند من جبال الديلم جنوبى بحر قزوين، وهى ولايات طبرستان وجرجان وجيلان. ونشأوا فى خدمة ما كان بن كالى التركى قائد مرداويج ابن زيار القائد الفارسى الذى ولته دولة الخلافة جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم وبلاد الكرج فاستبد بها، وبويه نفسه من أصل خامل، ويقال إنه كان فى الأصل صيادا ثم دخل فى خدمة مرداويج مع أولاده الثلاثة على والحسن وأحمد، ثم ارتقوا عنده فولاهم القيادات، وكان لهذا البيت نزوع فارسى ظاهر أخذه رجاله عن مرداويج بن زيار الذى قيل إنه كان يريد أن يستولى على بغداد. وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب كما يقول الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٥١.

وكان مرداويج بن زيار قد شك فى نوايا البويهيين إلا على بن بويه (وكان هذا قد لقب نفسه أبا شجاع بويه)، فقلده أرجان، وعندما قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م صارت قيادة الجند الديلمى كله إلى على بن بويه الذى اتخذ لقب عماد الدولة وجعل مركزه ولاية فارس، ثم استدعى أخويه الحسن (لقبه ركن الدولة) وجعله على أصبهان، والرى وهمدان وبقية بلاد العراق العجمى (الجبالي). وأحمد الذى تلقب (بمعز الدولة) وتولى أمر ولاية كرمان، وتآمر عماد الدولة على بنى بويه مع وزراء الخليفة المستكفى باستدعاء ركن الدولة حسن وإقامته أميرا للأمرء وخلع عليه الخليفة وفوضه فى إدارة دولته ففعل سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م وصار بنو بويه وجندهم أصحاب الأمر فى دولة الخلافة. وقد تقاسم بنو بويه الجناح الشرقى من الدولة، وانقسم ما بيد بنى بويه إلى خمس دول:

١ - بنو مشرف الدولة بن بويه فى العراق ٤١١-٤٤٧ هـ/ ١٠٢٠-١٠٥٥ م.

٢ - بنو أبي الفوارس قوام الدولة في كرمان ٤٠٣ - ٤٤٨ هـ / ١٠١٢ - ١٠٥٦ م.
٣ - بنو ركن الدولة أبي علي حسن في ٣٢٠ - ٤١٤ هـ / ٩٣٢ - ١٠٢٣ م الرى وهمذان وأصبهان.

٤ - بنو أبي الحسن على عماد الدولة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ / ٩٣٢ - ١٠٥٥ م. في فارس.
٥ - بنو معز الدولة أبي الحسين أحمد ٣٢٠ - ٤٠٣ هـ / ٩٣٢ - ١٠١٣ م في العراق والأهواز وكرمان.

وكان فرع معز الدولة هذا أقوى فروع البويهيين نظرا لسيطرتهم على العراق وشنون الخلافة، ومنهم عضد الدولة أشهر بنى بويه وأعظمهم سلطانا ٣٦٧ هـ - ٣٧٢ هـ / ٩٧٧ م - ٩٨٢.

أما ما يلي فارس والأهواز وكرمان شرقا فكان في يد السامانيين. في حين أن بلاد الجزيرة وحلب والموصل كانت في يد الحمدانيين، وهم أسرة عربية من تغلب، وبلاد الشام ومصر كانت في يد الإخشيديين والفاطميين.

وكان بنو بويه أقل أصحاب الدولة الإيرانية قدرا نظرا لسوء سياستهم وأطماعهم وسيطرتهم المطلقة على الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان فيهم ميل شديد إلى العلوية وإن لم يظهروا التشيع، وإلى هذا الميل العلوي الشديد يرجع حرصهم على الهبوط بقدر خلفاء بنى العباس وإهانتهم مع أنهم كانوا يحكمون باسمهم. ولم تسترد الخلافة العباسية جاهها إلا على أيدي السلاجقة السنيين أصحاب الدولة السنية المشهورة.

ولكن هجرة الأتراك في اتجاه الغرب أفسحت المجال للمغول للتقدم غربا، وفي أعقابهم أقبل التتار بفرعهم البيض والسود، وكان المغول والتتار جميعا على الديانة الشامانية التي تقول بأن العالم تسكنه أرواح خيرة وأخرى شريرة توجه حياة البشر، وكانوا يقولون إن الكهنة وحدهم هم الذين يستطيعون الاتصال بهذه الأرواح وتوجيهها لخير البشر، ولهذا كان سلطان الكهنة في عالم المغول والتتار عظيما.

وكان هناك مغول وتتار آخرون يسكنون أقاليم الغابات شمال منازل المغول الرعاة، وكان هؤلاء صيادين، ومن هؤلاء جنكيز خان واسمه تيموجين بن بيسو كاي من بيت قيات من بيوت المغول الصيادين التايجيبوت، وقد ولد سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ثم اتخذ فيما بعد لقب جنكيز خان الذي اشتهر به.

وشب تيموجين فارسا محاربا، وكان بطبعه جريئا مغامرا فجعل همه توحيد المغول جميعا تحت قيادته. وتمكن من توحيد قبائل المغول فى صحراء منغوليا، وانضم إليه الكثير من التتار الذين كانوا يعيشون إلى شرق المغول، وكون لنفسه فرقة من الفرسان الشجعان من ألف فارس هم حرسه الخاص يحيط بهم عشرة آلاف فارس كلهم من طراز تيموجين بسالة وشجاعة، وبهذه القوة تمكن من توحيد المغول وتنظيم مجلسهم العشائرى المسمى بالقوريلتاي، وتمكن من فتح الجزء الغربى من منغوليا، فلما تم له ذلك اجتمع مجلس القوريلتاي عند منابع نهر أولون واختاروه خانا للمغول أى سلطانا لهم واتخذ لقب جنكيز خان. أى ملك العالم سنة ٥٦٠٣/ ١٢٠٦ م وتولت كتيبة الفرسان المكلفة بحراسته تنفيذ أوامره. وكان كل واحد منهم يلقب بلقب يهادر أى الشجاع.

وكان قائد كل ألف من الآلاف العشرة الذين جعلهم نواة جيشه يلقب بطرخان. وجعل لهم امتيازات كثيرة منها الإعفاء من الضرائب.

ولم يستخدم المغول الأبجدية الصينية فى كتابة لغتهم ومراسلاتهم إلا بعد سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م، وقبل ذلك كانوا يستعملون الحروف الأويغورية، وجنكيز خان نفسه لم يعرف إلا المغولية.

ولم يدخل فى خدمة جنكيز خان من أهل العلم من الصينيين إلا رجل واحد نعرفه هو ليوجيو تساي، وكان عالما بأمور الحكمة والفلك والجغرافيا، وقد وقع فى أسر جنكيز خان عندما غزا بكين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ثم أطلق سراحه واستخدمه ورفع مكانته، ولم يدخل الترك أو الفرس فى خدمة جنكيز خان إلا بعد غزوه لبلاد ما وراء النهر ومنهم رجل فارسى يسمى محمود اتخذه سفيرا وأرسله إلى محمد خوارزم شاه، ثم ولاه فيما بعد واليا على بلاد ما وراء النهر فقام بتعمير ما خربه المغول وأصلح أحوال الناس.

وعندما تم انتخاب «جنكيز خان أعظم» للمغول سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م أصدر قانون الياسة. وهو قانون يسمح لرئيس الدولة باستعمال كل أساليب العنف والقسوة لتطوير سلطانه^(١).

أما نشاط جنكيز خان العسكرى قبل هجومه على بلاد المسلمين فيتلخص فيما يلى:

١ - إخضاع كل قبائل صحراء منغوليا وتوحيدها فى دولة واحدة.

(١) 'مغول'. د. السيد الياز - دار النهضة العربية للنشر بيروت - ١٩٦٧ ص ٦٠، ٦٢.

٢ - إرغام الترك الأويغور الضاربين في صحراء جوبى في الجنوب الغربى من منغوليا على قطع صلاتهم بالترك القراخطاي والدخول في طاعته سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م واتبعهم في ذلك أرسلان ملك الترك القرلوق (حوالى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) ثم خضعت له قبائل الترك القرغيز النازلة في ضفاف نهر الينتىسى (١٢٠٧ - ١٢١٨ م).

٣ - هزيمة إمبراطور الصين الشمالية وهى دولة كين سنة ١٢١١ م ثم الاستيلاء على جنوب هذه المملكة (حوض النهر الأصفر) وإرغام إمبراطور كين وهو وان ين سيون ٦١١-٦٣١ هـ / ١٢١٤-١٢٣٣ م على قبول ذلك، ولكن الحرب وقعت واستولى جنكيز خان على بكين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م، أما وان ين سيون فكان قد نقل عاصمته إلى كايفونج في إقليم هونان.

٤ - وفى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م اعترف ملك كوريا بالتبعية لجنكيز خان.

٥ - اتجه جنكيز خان غربا، وكان أول ما واجهه مملكة القراخطاي الضخمة وكانت تمتد من بلاد الأويغور إلى بحيرة آرال، وقد ذكرنا أن ملك الأويغور خضع لجنكيز خان سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ثم تبعه أرسلان ملك الترك القورلوق.

وكان محمد خوارزم شاه الثانى قد عمل على تدمير مملكة القراخطاي مستعينا فى ذلك بكوجك ملك الترك التاميان واقتصرت مملكة القراخطاي بعد ذلك على حوض نهر التاريم، وأشهر مدنها كاشغر وباركن وختن، وامتدت أملاك خوارزم شاه إلى بلاد ما وراء النهر واتخذ عاصمته فى سمرقند.

وكان القراخطاي (وأصلهم من الصينيين ولكنهم طردوا من بلادهم) قد هاجموا دولة الترك القراخانيين واستولوا منهم على منطقة واسعة جنوبى بحيرة بلكاش وفيها تقع بلاساغون وكاشغر وسمرقند وبخارى.

واستنجد الترك القراخانية بالسلطان أحمد سنجر السلجوقى، ولكن القراخطاي هزموه شمال سمرقند سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وبذلك امتدت مملكة القراخطاي من بلاد الكرغيز على نهر ينتسى حتى بلخ ومن خوارزم إلى بلاد الأويغور، واتخذ ملكهم لقب كورخان وأقام عاصمته فى بلاساغون على نهر جو.

وكان القراخطاي بوذييين، وكان دعاة المسيحية النسطورية منتشرين بينهم، ولكنهم لم يوقفوا فى كسبهم إلى النصرانية، وعندما انتصر القراخطاي على السلطان سنجر أكبر ملوك

المسلمين في عصره تسامع الناس في الغرب المسيحي بذلك. وصور لهم الرهبان والمبشرون أن ملك القراخطاي ملك نصراني في آسيا سيقضى على الإسلام في الشرق، وهنا دأعت أسطورة يوحنا الملقب بالبرسترجون الذي قيل إن القراخطاي تنصروا على يديه. وقد أشار ماركو بولو الرحالة الإيطالي إلى ذلك، وقال إن مملكة برسترجون تقع وراء بلاد المغول إلى المشرق، ثم قيل بعد ذلك إن بلاد برسترجون هي الحبشة.

وعلى رغم سيادة القرخطاي الصينيين السود على بلاد ما وراء النهر الإسلامية فإن البلاد ظلت إسلامية، وترك القراخطاي أحرارا في عقيدتهم، وأصبحت ناحية بلاساغون هي الحد الفاصل بين بلاد الإسلام وبلاد البوذية في الشرق.

وأما زحف القراخطاي غربا زحفت جماعات من الغز التركمان نحو الجنوب، وحالفوا السلطان سنجر أولا. ثم انقلبوا عليه بعد ذلك وأسروه سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م وعندما خرج من أسرهم سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م لم يعيش إلا سنة واحدة ومات سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م وعجز خليفته وابن أخيه محمود خان عن السيطرة عليهم فانتشروا من ضفاف نهر جيحون وهو أموداريا إلى كرمان.

الخوارزم شاهية والمغول

خلال ذلك كله ظلت منطقة خوارزم آمنة بفضل ملوكها وقواتهم العسكرية التي تكون معظمها من الترك القفجاق، وفي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م احتل تكش خوارزم شاه ابن محمد خوارزم شاه الأول خراسان، ثم استعان به الخليفة الناصر على طغرل بك السلطان السلجوقي فامتد سلطان خوارزم شاه تكش إلى الري وهمدان، ثم طالب الخليفة الناصر بأن يعترف به سيطرانا على بغداد كما كان الحال مع سلاطين السلاجقة العظام (وقد اعتبر نفسه وارثا لهم) فتردد الخليفة في ذلك، ومن ذلك الحين أصبح الخوارزم شاهية أعداء الخليفة ناصر.

وعندما تولى الحكم ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه الثاني سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م شرع في توسيع ملكه فقضى على قوة القراخطاي في بلاد ما وراء النهر واحتل سمرقند، وبذلك أصبحت بلاده مواجهة لمغول جنكيز خان. ثم طارد بقية الغوريين في إيران ووضع يده على بلادهم ودخلت الترك القفجاق في طاعته، وقد تم ذلك سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وبذلك شملت دولة خوارزم شاه كل هضبة إيران بالإضافة إلى أذربيجان.

ولكن خوارزم شاه لم يحسن حكم هذه البلاد الشاسعة، فوقع الخلاف بينه وبين أهلها وأخضعهم بالقوة ومد حدوده حتى شملت بلاد فرغانة في الشرق. وكان يحالفه ويعينه على ذلك كجلك أمير طائفة من الصينيين تسمى النايمان، وكان هذا الملك يسيطر على بعض البلاد شمال ما وراء النهر، وكان كجلك يزعم أنه حليف المسلمين مع أنه كان بوذيا يضطهد المسلمين.

وابتداء من سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩ م أخذت قوة المغول تزحف غربا فاستولوا على بلاد الأويغور وكانوا قبل ذلك خاضعين للقراخطاي.

وفي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١ م سيطر المغول على تركستان الروسية وتقع شمال غرب بلاد ما وراء النهر فدخل أرسلان خان حاكم قبائل الترك القرلون المسلمين في طاعة المغول. وكان على علاء الدين محمود خوارزم شاه أن ينصرف بكل قواه للقضاء على المغول ولكنه انصرف بدلا من ذلك لمطالبة الخليفة الناصر ليعينه سلطانا على البلاد الشرقية وعلى بغداد كما كان الحال مع السلاجقة العظام، وهنا أيضا أخطأ الخليفة الناصر فرفض ذلك الطلب ودخل في نزاع مع خوارزم شاه، وكان يستطيع أن يستجيب لهذا الطلب ليخلص نفسه من متاعب جسيمة.

ووقف خوارزم شاه بين المغول من ناحية والخلافة العباسية من ناحية أخرى، وكان عليه أن يتلقى صدمة المغول، ووقف في وجه العاصفة وحاول وقف الضغط المغولي. كان من الواضح أن جنكيزخان قد قرر غزو البلاد الإسلامية بعد أن تمكن من غزو الصين.

بدأ جنكيز خان بتصفية أملاك كجلك ملك النايمان فأرسل جيشا كبيرا بقيادة جيبنيون فاستولى على بلاد النايمان وقضى على ملكهم كجلك دون مقاومة، واستولى على بلا ساغون وماليك وكاشغر وأطلق الحرية الدينية للمسلمين الساكنين في تركستان الشرقية.

وفي سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م أرسل جنكيز خان وفدا من ثلاثة تجار مسلمين بهدف كبيرة إلى علاء الدين خوارزم شاه ومعهم رسالة من جنكيز خان يخاطبه فيها بقوله «ولدنا الحبيب إلى قلوبنا» وهي عبارة يريد بها جنكيز خان أن خوارزم شاه أصبح من أتباعه فاستاء من ذلك خوارزم شاه، وحدث بعد ذلك أن قتل سفراء جنكيز خان في طريق عودتهم وربما لم يكن لخوارزم شاه يد في ذلك، ولكن جنكيز خان اعتبر هذا الحادث إعلان حرب عليه.

سار جنكيز خان بكل قواته لحرب خوارزم شاه، وكانت قوات خوارزم شاه ضخمة ولكن العداء بينه وبين رؤساء جنده كان شديدا، ثم إن قواته كانت في غالبيتها جماعات من المرتزقة الذين يحاربون للمغانم ولا يعرفون النظام، ولم يضع خوارزم شاه خطة محكمة للمعركة في حين أن جنكيز خان قسم قواته إلى ثلاثة جيوش كل منها يتكون من عدة طومانات «عشرات الألوف».

فسار ابنه شغتاي في جيش كبير يضم الترك الأيغوريين نحو بلدة أطرار لمحاصرتها، وسار ابنه جوجي في جيش آخر نحو نهر سيحون. وسار جيش أصغر نحو خوقند. وسار جنكيز خان نفسه ومعه ابنه الأصغر تولى بمعظم الجيش نحو سمرقند وبخارى. وبدلا من أن يتقدم علاء الدين محمد خوارزم شاه للاقاة أعدائه وقف مكانه عند سمرقند ينتظر قدوم المغول، وكما خانته شجاعته خانة ذكاؤه فلم يقف بكل جنده بل وقف في جيش صغير لا يزيد على ١٠,٠٠٠ مقاتل.

وكانت النتيجة واضحة قبل اللقاء، فقد انهزم خوارزم شاه هزيمة ساحقة، واستولى جنكيز خان على بخارى في ذى القعدة سنة ٦١٦هـ/ فبراير ١٢١٩م وخرّبها تماما وسار إلى سمرقند فتخلّى عنها خوارزم شاه وانسحب إلى خوارزم وتولى أهلها الدفاع عنها دفاع الأبطال، ولكنها سقطت في المحرم ٦١٧هـ/ مارس ١٢٢٠م واستشهد من أهلها عشرات الألوف، وهرب الباقون ودمرت المدينة تدميرا تاما، حتى إن جنكيز خان أحرق مسجدها الجامع على من لجأ إليه من المسلمين.

استولى جيش جوجي بن جنكيز خان على أطرار في ربيع أول ٦١٨هـ/ أبريل ١٢٢١م ثم استولى على مدينة جند.

وفكر خوارزم شاه في الهرب إلى بلخ ثم إلى غزنة، ثم عدل عن ذلك وسار نحو نيسابور في ربيع أول ٦١٨هـ/ أبريل ١٢٢١م.

ثم استولت جيوش جنكيز خان على الطالقان. وانسحب خوارزم شاه إلى قزوین وحاول أن يقف هناك للقاء المغول في ٣٠,٠٠٠ مقاتل، ولكنه اختلف مع قواده ففرقوا عنه. وفقد المغول أثره فأغاروا على أذربيجان ونهبوا أذربيل وقاتلوا الكرج «أهل جورجيا».

وفي ذى القعدة ٦١٨هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٢٢١م مات محمد خوارزم شاه الثاني في جزيرة صغيرة في جنوب بحر الخزر. وعهد بالملك من بعده لابنه جلال الدين منكبرتي الذي بدأ حكمه في ذى القعدة ٦١٧هـ/ ديسمبر ١٢٢٠م.

وأنشأ شغتاى بن جنكيز خان مدينة سالى لتكون عاصمة له فيما بعد.
وفى ربيع أول ٦١٨ هـ/ أبريل ١٢٢١م سقطت جرجانية عاصمة خوارزم بعد قتال بطولى
عنيف مات فيه الألوف من الشهداء. وأصبحت جرجانية من مملكتات جوجى.
واستولت قوات جنكيز خان على ترمذ ثم بلخ فى ربيع سنة ١٢٢١م وتولى ابنه تولى
فتح بقية خراسان.

ثم استولوا على مرو وقتلوا فيها عشرات الألوف، وكان فيها قبيل ذلك ياقوت
الحموى الجغرافى، الذى فر هارباً أمام المغول بكتبه، وقد وصف الأهوال التى تعرض لها
أهل مرو.

وفى ربيع أول ٦١٨ هـ/ أبريل ١٢٢١م سقطت نيسابور ودمر المغول مشهد على الرضا
فى طوس.

وكان جلال الدين منكبرى قد اتخذ غزنة مركزاً له، وأعد جيشاً من ٣٠,٠٠٠ مقاتل
واتجه شمالاً نحو الباميان لحرب المغول. وتمكن من الانتصار عليهم عند براون شمال
كابول، وكان جيشه يتكون من الغوريين والأتراك. وبعد المعركة تخلى عنه الغوريون.

وبعد استيلاء جنكيز خان على الطالقان دخل فى صراع مرير مع جلال الدين منكبرى
فى جبال الهندكوش، وتتبعه المغول فتراجع أمامهم من غزنة. ودارت بين جلال الدين
منكبرى والمغول معركة عنيفة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م على ضفة السند. وعندما تبين أن الهزيمة
واقعة به عبر النهر سباحة ولحق به ٤٠٠٠ من جنده ولجأ إلى التوتميش سلطان دلهى
فأجاره، ثم أمر جنكيز خان بتدمير غزنة ثم عاد إلى إيران وظهر فى كرمان.

وفى سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م خرب المغول هراة، وقتل جلال الدين منكبرى فى سنة
٦٢٨ هـ/ ١٢٢٨م.

وبعد موته لم يبق فى إيران من يواجه قوات المغول، وكان كثير من التركمان والأكراد
قد انضموا إلى المغول، فدخل المغول بلاد الكرج وبلغوا تفليس.

وكان الأشرف بن العادل أيوب الأيوبى يحكم خلاط وديار الجزيرة، فحاول الكرج
أن يتفقوا معه ومع أتاك أذربيجان للوقوف فى وجه اللغول، ولكن هذا الأمير الأيوبى
انسحب بحجة التوجه إلى مصر لقتال الصليبيين الذين نزلوا إذ ذاك فى دمياط.

وبدأ جنكيز خان ينسحب إلى منغوليا عن طريق أفغانستان، وكان بعد أن استولى على خوارزم قد أقام ابنه جوجى أميراً عليها، وشملت ولايته خراسان ومازندران، وحاول جوجى الاستقلال بهذا الجزء من الدولة فقتله أبوه بالسم.

ومات جنكيز خان فى رمضان ٦٢٥هـ / ١٨ أغسطس ١٢٢٧م فى موضع غربى بلدة ينج لبيان الحالية فى سنكيانك.

وتنازع أبناء جنكيز خان بعد وفاته وبخاصة شغتاي وأقطاي، وكان أقطاي قد وضع يده على أملاك أخيه جوجى. ولم يلبث شغتاي وأقطاي ابنا جنكيز خان أن ماتا، واجتمع مجلس القوريلتاي واختار باتو ثانى أولاد جوجى بن جنكيز خان خانا أعظم للمغول.

فنهض باتو فى جيش كبير لغزو شرق أوروبا. فدخل عاصمة البلغار ثم اجتاح مصب نهر الفولجا واخترق روسيا سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م وغزا بولندا سنة ٦٣٩ هـ / ١٢١٤م وفى جمادى الثانى ٦٣٩ هـ / ١٢٤١م عبر نهر الطونا.

وفى ربيع ١٢٤٢م عاد إلى بلغاريا، ثم رجع إلى منطقة الفولجا عن طريق الأفاق «ولاشيا» والبلغدان «مولدافيا».

وفى سنة ١٢٤٨م انتخب مونكو أكبر أولاد تولوى خانا أعظم للمغول وهو خامس خاناتهم العظام.

وانقسمت دولة المغول إلى قسمين تفصل بينهما الصحراء الواقعة بين تراز ونهر تشوى، وأخذ ابن أخيه باتو بلاد أوروبا.

ونجح هولاکو أخو مونكو فى الانفراد بالشرق الإسلامى، وفى ذى الحجة ٦٥٤ هـ / ديسمبر ١٢٥٦م بدأ هولاکو حملته المخربة على العالم الإسلامى، وقد انضم إليه فى حملته على بلاد الإسلام بعض الرؤساء من بلاد إيران والقبق «القوقاز» وانضم إليه أيضا ركن الدين خورشاه زعيم الحشاشين، ولكن هولاکو رفض طاعته ثم قتله وعفا عن الفلكى نور الدين الطوسى وأدخله فى خدمته، وكان هذا الرجل يحرض هولاکو على غزو العراق، فاتجه بكل قواته نحو بغداد، وفى ٩ صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٥ فبراير ١٢٥٨م سقطت بغداد فى يده، وأنزل المغول بها مذبحه رهيبة، وقتل هولاکو الخليفة المستعصم آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد.

واستسلم أمراء الشام فتقدم هولاکو واحتل حلب ودمشق، ولكن مماليك مصر هزموا جيش المغول بقيادة كتبغا الذى خلف هولاکو عند عين جالوت، وتجمعت معهم عشرات الألوف المتطوعة أى المجاهدين الأحرار.

إيلخانية إيران والدويلات التي انقسمت إليها

فى صفر ٦٥٨ هـ/ يناير ١٢٦٠م وبعد أن استقرت قدم المغول فى إيران والعراق مات الخان الكبير مونكو، وبدأ النزاع على العرش. واختلف المغول فيمن يختارونه. أرين بوقا أو قوبليخان الذى كان قد استقر خاناً على بلاد الصين؛ ورأى هولاء الذى كان فى بلاد ما وراء النهر أن يوجه اهتمامه ناحية الشرق بعد أن هزم الممالك ثم الأيوبيون قوات المغول. وكان هولاء يميل إلى قوبليخان، وعندما استقر الأمر لهذا الأخير خاناً أعظم للمغول أقر هولاء على القسم الغربى من إمبراطورية المغول، ويشمل خانية التركستان وإيران، فأناج عنه كتبنا لقيادة الحرب فى الشام، واستمر كتبنا فى هذا المنصب حتى قتل فى معركة عين جالوت فى ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ/ سبتمبر ١٢٦٠م.

وفى أيام الخان الأعظم مونكو كانت العلاقات سيئة بين خان مغول القبيلة الذهبية فى التركستان، والبلاد الغربية وهو بركة خان وهولاء خان فارس، وكان الحد الفاصل بين كل منهما جبال القوقاز. وفى عهد السلطنة الملوكية وقع التقارب بين السلطان بيبرس البوندقدارى وبركة خان القبيلة الذهبية وبلاد التركستان، وكان بيبرس نفسه من أتراك القفجاق من الأتراك الغربية، فى حين كان قطز من فرسان الخوارزم شاهية، وكانت عاصمة هولاء أذربيجان.

وفى المحرم ٦٦١ هـ/ نوفمبر ١٢٦٢م عبرت جيوش هولاء باب الأبواب المسمى بالدربند فى القوقاز، ولكن جيوش بركة خان بقيادة نوغاي انقضت على جيش هولاء ومزقته إربا وتحرج مركز هولاء وأعلن مغول القفجاق الحرب عليه.

وكانت أملاك هولاء تمتد إلى الموصل حيث دخل أتابك الموصل بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٢٧-٦٥٧ هـ/ ١٢٢٩-١٢٥٩م وشملت دولة هولاء أيضاً أتابكية فارس، وكان يحكمها أمير من الصلغوريين فقتله المغول واستولوا على عاصمة فارس وهى كازارون، وخضعت لمغول هولاء أيضاً كرمان، ومات هولاء فى ٨ فبراير ١٢٦٥م فى المراغة عاصمته ولحقت به زوجته ظفرخان المسيحية وخلفه ابنه أبغا بن هولاء.

حكم أبغا من ١٢٦٥م إلى ١٢٨٢م واتخذ عاصمته فى المراغة ثم نقلها إلى تبريز، وظلت تبريز عاصمة مغول إيران حتى نهاية أسرة هولاء فيما عدا الفترة من ٧٠٤ إلى ٧١٤ هـ/ ١٣٠٤-١٣١٤م حيث انتقلت العاصمة إلى سلطانية.

كانا أبغا نائباً لقبولاي خان، وكان بوديا، ولكنه مثل أبيه كان يعطف على النصارى
كالأرمن والنساطرة واليعاقبة، ثم تزوج من مارية ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل
باليولوجوس، وكان يحالف الأرمن والكرج والفرنج.

وحاول أبغا بن هولكو الانتقام من بركة خان والقفجاق من القبيلة الذهبية ولكنه انهزم
سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م. ومات بركة بعد ذلك بقليل في نفس السنة.

واستمرت الحرب بعد ذلك فانتصر أبغا بن هولكو على خانبة تركستان في هراة في
المحرم ٦٦٩ هـ / ١٢٦١ م.

وتعاقب خانات المغول على خانبة فارس وعاصمتها تبريز حتى تولاهما غازان بن أرغون
ابن أبغا بن هولكو سنة ٦٩٠-٧٠٣ م فاعتنق الإسلام، وأصبحت الإيلخانية دولة إسلامية
سنية في عصره، ثم شيعية في أيام أخيه أولجايتو خدا بندا سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م،
وغازان شجع الإسلام والمسلمين، وعمل على تعويض ما أصابهم على أيدي المغول، وأعاد
سلطان الشرع في البلاد، وابتنى المساجد في عواصم بلاده، وكان طبيبه ووزيره هو رشيد
الدين فضل الله المؤرخ.

وفي عهد أولجايتو خدا بندا أصبحت عاصمة الدولة في سلطانية الواقعة شمال شرقي
العراق في البلاد الواقعة بين نهري زنجان وأبهر، وكانت لغتها هي الفارسية، وقد كتبت
بحروف عربية، والسبب في استعمال الفارسية في الخانية هو أن كل رجال الحل والعقد
في الدولة كانوا فرسا أو تركا.

وكانت حدود إيلخانية فارس كما يلي:

في الشمال الشرقي كانت تحدها أراضي إيلخانية تركستان، وكان يحكمها أبناء
شغتاي ابن جنكيز خان، وكان نهر جيحون هو الحد الفاصل بين الإيلخانيين.

وفي الجنوب الشرقي كان يحدها نهر السند والبنجاب في الشزق، وكانت حدود
الإيلخانية تصل إلى حدود الشام، وكان الفرات حدها الغربي.

وبعد أن ضعفت دولة سلاجقة الروم أثناء الحروب الصليبية ووقع الخلاف بين أمرائها
انتهى أمرها على يد أبلقخان مغول القبيلة الذهبية سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م. وبذلك أصبحت
حدود الإيلخانية تتاخم حدود الدولة البيزنطية.

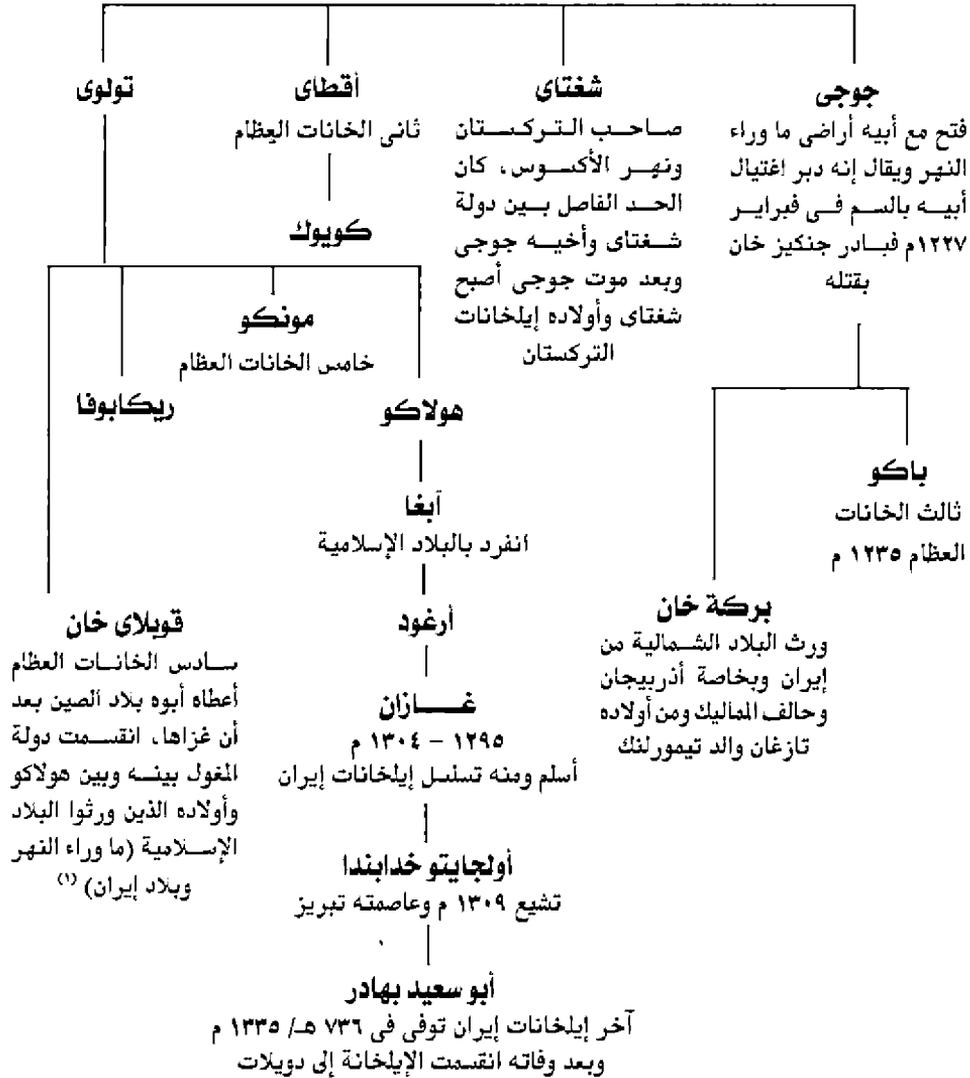
والحد الشمالي كان يصل إلى الدر بند وإقليم الكرج، وفي شمالي ذلك كانت تقع بلاد
أحفاد جوجي بن جنكيز خان.

دويلات داخل الإيلخانية

دولة آل كرت تابعة للإيلخانية فى هراة والغور وخرجستان ، وقد استمرت هذه الدولة حتى وفاة سعيد بهادر آخر الإيلخانات .
دولة القراخطاي فى كرمان وقد استمر حكمها حتى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م . دولة فارس التى استمرت حتى سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م .
دولة بختيارى ولورستان فى جنوب إيران .
كذلك قامت دويلة محلية مستقلة فى هرمز والجزر ، ودولة أخرى فى لار على الخليج العربى .
وفى سجستان حكمت أسرة من أحفاد الصفاريين ، وفى سجستان أيضا حكمت أسرة من أحفاد البويهيين .
وفى مازندران حكمت أسرة بادوزبان .
وفيما يلى جدول يبين شجرة بيت جنكيز خان :

جنكيز خان أول الخانات العظام

ولد سنة ١١٥٥ م - أصبح خانا أعظم سنة ١٢٠٦ م - توفي في أغسطس سنة ١٢٢٧ م



(١) د. حسين مؤمن - المرجع السابق ص ٢٤٢.